الحرب في سنتين (١)

في الوسع تلخيص حوادث الحرب الثانية في ختام السنتين الاولين وبدء الثالثة، في ان المانيا، على حسن تأهبها لها من سنوات واضمارها الاعتداء كسبت معارك كثيرة ولكنها لم تكسب الحرب، ولعلها أبعد من كسبها في مستهل سنتها الثالثة منها في أواخر سنتها الاولى، وان بريطانيا وحلفاءها على قلة تأهبها للحرب خسرت معارك كثيرة ولكنها لم تخسر الحرب وهي مع حلفائها ومؤيديها أدنى الآن الى كسبها منها في أي وقت مضى خلال السنتين المنصرمتين

كانت الآلة الحربية الالمانية متأهبة للقتال بعد سنوات من الانتاج الصناعي الحربي الكلي وتوسيع نطاق الجيش وسلاح الطيران، وتدريب الفرق المنتقاة على أساليب الحرب الميكانيكية، ومعظم هذه الاساليب جديد مبتكر فكان ينطوي بحكم مافيه من الجدة والابتكار على عنصر المفاجأة، العظيم الشأن في الحرب، من قديم الزمان الى حديثه. فاجتاحت بولونيا في سبعة عشر يوماً والدنمارك والنروج في نحو ذلك وهولندة وبلجيكا ولكسمبرج وشمال فرنسا في سبعة وثلاثين يوماً

فلما سلمت فرنسا وعقدت الهدنة مع المانيا وايطاليا، بدا لكثيرين من متتبعي الحوادث ان المانيا باتت قاب قوسين او أدنى من كسب الحرب. ولا سيما عند ما علم ان بريطانيا خسرت معظم معداتها الحربية الحديثة في سهول فلاندرز عندما أجلت الجيش البريطاني عن دنكيرك. فكان هذا اليقين باعثاً رئيسياً على دخول ايطاليا الحرب (١٠ يونيو سنة ١٩٤٠ وكانت معركة فرنسا قد أشرفت على ختامها وعرفت نتيجتها العسكرية المحتومة) لتظفر بنصيبها من الاسلاب، كما كان باعثاً على امتناع قادة فرنسا بعد سقوط وزارة رينو عن المضي في المقاومة في افريقية وسائر الامبراطورية وهم لو فعلوا لكان لفرنسا شأن آخر أعظم وأكرم وأجدر بتاريخها وتقاليدها في هذا الصراع

﴿دنكيرك: نقطة تحول في الحرب﴾ غير ان الذين نفذوا الى سر الجلاء عن دنكيرك ادركوا بزكنهم ودقة نظرهم ان هذا الجلاء لم يتم لانهُ اتفق ان كان البحر رهواً في أيام الجلاء (اوائل يونيو ١٩٤٠) بل لان سلاح الطيران البريطاني — وبخاصة قيادة المطاردات — استطاع ان يثبت سيادته على مضيق دوفر فتمكنت مئات السفن البريطانية — من سفن الحرب الى زوارق النزهة والصيد — من أن تنقل ما يزيد على ثلاثمائة الف جندي من الساحل الاوربي الى الساحل البريطاني. ولو لم تفرض المطاردات البريطانية من طراز هاريكاين وسبيفير سيطرتها على تلك الشقة الضيقة من الماء لكانت السيطرة عليها لسلاح الطيران الالماني ولما

(١) نشر الجانب الاكبر من هذا الفصل في مجلة « الصور » ٤ سبتمبر في مقال لرئيس تحرير المقتطف وقد أعدنا نشره بعد ما أضفنا اليه نشرات جديدة يقتضيها المقام تلبية لطلب طائفة من أصدقاء المقتطف

أجدى سكان البحر في نقل الجيش البريطاني ولا تبيح للقاذفات والمنتصبات الالمانية ان تغرق وتدمر وتعطب جميع السفن التي تحاول ذلك او معظمها

فلما انجلاء ادرك فريق من الخبراء العسكريين ولاسيما الذين يهولون من شأن سلاح الطيران في الحرب الحديثة ان غزو بريطانيا بات غير محتمل في سنة ١٩٤٠ واذا حاوله الالمان باءوا بالخيبة الذريعة . لانهم اذا عجزوا عن الفوز بالسيطرة الجوية فوق مضيق دوفر في اثناء اجلاء جيش مقهور ، فالغالب انهم يعجزون كذلك عن الفوز بها لحماية سفن الغزو . فيتولى البريطانيون تدميرها بالاشتراك بين سلاحهم الجوي وأسطولهم البحري المتفوق الواقف بالمرصاد .

﴿ معركة بريطانيا ﴾ ولكن الالمان ، لم ييأسوا على ما يلوح بهذه العبرة ، اغتراراً منهم بقوتهم ، وثقة ببأسهم ، وثمة من الأدلة ما يشير الى اقدامهم على الخروج من ثغور البلجيك لغزو بريطانيا قبل بعد من الحالة الا بعض من أقدم عليها وكان معظم من عاد يحمل آثاراً من عواقب اقدامه

كان ذلك فيما أظن حوالي منتصف سبتمبر سنة ١٩٤٠ ، وكان الالمان قد مهدوا له بغارات جوية نهارية واسعة النطاق على سواحل بريطانيا الجنوبية خلال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من اغسطس ، ثم على لندن في أثناء شهر سبتمبر ، ولكن سلاحهم الجوي مني بخسارة فادحة في الرجال والطائرات حتى ليقدر ما خسروه في هذه الغارات في شهري اغسطس وسبتمبر بألفي طائرة وستة آلاف طيار ومساعد طيار ، فكفوا عن هذه المحاولة في آخر سبتمبر وأوائل اكتوبر وخسرت المانيا « معركة بريطانيا » او تلك المرحلة من « معركة بريطانيا » ، وصح في رجال الطاردات البريطانية — واليهم يعود الفخر الأول في هذا الظفر البريطاني — قول تشرشل المشهور

Never in the history of mankind have so many owed so much to so few.

والى القارىء بعض ما جاء في التاريخ الرسمي لقيادة «القاذفات البريطانية» عن نصيبها في احباط حملة الغزو قبل قيامها : —

وقد شاع مرة وخاصة في أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٤٠ في اميركا وفي اوربا ان عمارات سفن الغزو قامت فعلاً وان قاذفاتنا تغلبت عليها في عرض البحر وقبل ان تاريخ قيامها كان في ١٥ سبتمبر . ولا ريب في ان موانىء المانيا كانت مكتظة حوالي هذا التاريخ بعدد وافر من الصنادل والسفن وان سفناً كثيرة كانت تملك الاقنية الى الداخل . وجميع هذه السفن قذفت قذفاً قويًّا بقنابل الطائرات . ويبدو مرجحاً ان الغرض من هذه السفن المحشودة كان اشتراكها في المرحلة الثانية من الهجوم علينا . وهو هجوم كانت مرحلته الاولى السعي الى تدمير قواعدنا البحرية والجوية وكذلك اسرابه سلاح مطارداتنا والفوز من هذا الطريق بسيادة

الجو . وقد شوهدت الصنادل والسفن الأخرى متجهة الى مواقعها في مستهل هجوم جوي وذلك اما لتقلع في الدقيقة المعينة في يوم محدد واما لتكون متأهبة بعد انذار قصير الأجل لاستغلال نجاح ما تصيبه الطائرات

أما عدد ما دمر من الصنادل والسفن الصغيرة وعدد ما قتل أو جرح من الرجال فليس له شأن حاسم مباشر الآن . ولكن حقيقة واحدة تبرز واضحة دون الحقائق الأخرى . وهي ان الغزوة لم تتم في الطريق الماضي . وعلى الرغم من أعمال التأهب العظيمة التي جرت وتمارين الغزو العديدة التي توالت مدى اسابيع على سواحل غرب اوربا من اركاشون الى دن هلدر ، ومع ان صغار الصبية كانوا يتبعون الجنود الألمان الى ارصفة الموانىء الهولندية وهم يقلدون بحركة ايديهم حركتها في اثناء السباحة ويخرجون من أصواتهم أصوات الغرق ، ومع ان كل القارة الاوربية وقفت حابسة نفسها منتظرة انباء خروج هذه الأرمادا — ارمادة القرن العشرين — الى البحر — على الرغم من كل هذا لم تبد اشارة من القيادة الالمانية العليا ولم يشن هجوم ما. ولم تكن لتجرؤ على هذا ما دمنا نملك زمام البحر والهواء . وتوالي الأيام طالت الليالي واشتدت غارات القذف على هذه المواقع وليس هناك ريب في ان هذه الغارات بدأت تؤثر في نفوس الجنود الالمان الذين أعدوا لركوب هذه الصنادل وازدادت الموانع التي تحول دون استعمال الموانىء لحشد الجيش الغازي فتعذر تحريك السفن الى مراقيها تحت وابل القنابل وفي حالة الإظلام التي تقتضيها الغارات. وصعب تسيير الجنود الى متن السفن . وكان غرضنا أن ننشىء هناك حالة من الفوضى ولاريب في أننا أصبنا الغرض وما فتئت خطتنا ضرب العدو في موانئه قبل ان يبحر

فلما كف سلاح الطيران الالماني عن الغارات النهارية الواسعة النطاق في أواخر سبتمبر فقداحة ما أصيب به من الخسارة ولعجزه عن الفوز بالسيادة الجوية فوق مياه المانش وسواحل انجلترا الجنوبية تمهيداً للغزو ، انقلب الى الغارات الليلية على مدائن انجلترا ، بغية ارهاب الشعب وتدمير مصانعه . فلم يفز من الأول بطائل بشهادة جميع المراقبين المحايدين وما أدركه من الثاني لم يؤثر في تعاظم الانتاج الحربي البريطاني الا تأثيراً مؤقتاً . واستمرت الغارات الليلية الالمانية على مدائن بريطانيا مدى أشهر الشتاء الى الربيع عند ما بدأت الطاردات الليلية البريطانية نشاطها الفعال في مقاومة الغيرات الليلية وتحول سلاح الطيران الالماني الى البلقان والجنوب ثم الى روسيا

﴿ الى البلقان وروسيا ﴾ وأدرك هتلر وهيئة أركان الحرب الالمانية ان اخضاع بريطانيا في

عقر دارها بالغزو والغارات الجوية بعيد المنال فوضعت الخطط لاتجاهين حربيين في وقت واحد احدهما تشديد الحرب البحرية بوساطة الغواصات والقاذفات البعيدة المدى والمغيرات السطحية على خطوط الملاحة في المحيط الاطلسي والثاني الهبوط بجيشه الى البلقان والتطرق منه اما الى الشرق الاوسط واما الى روسيا. ولكن المقاومة العنيفة الباسلة في جبال اليونان ثم في جزيرة كريت أتاحت للقوات البريطانية والحلفائية فرصة لاخماد فتنة العراق وتبديد خطرها وانتزاع سوريا من براثن صنائع المانيا النازيين . وكان الجيش البريطاني قد صفى الامبراطورية الايطالية في شرق افريقية فتحولت الصورة الحربية في الشرق الاوسط تحولاً لا يقرى كثيراً محاولة تنفيذ الخطة الالمانية فيه . ولعلّ هيئة اركان الحرب الالمانية ، رأت على كل حال ، ان الخاطرة في تنفيذ خطة الشرق الاوسط — لو اتيحت لها العوامل المؤاتية — تعرضها لخطر عظيم ما دام المارد الروسي منتصباً في الشمال الشرقي على يدارها يعد العدة ليوم الحساب . ولعلها ادركت كذلك ان العجز عن قهر بريطانيا في النصف الثاني من سنة ١٩٤٠ وعن جرحها جرحاً بالغاً في النصف الأول من سنة ١٩٤١ يعني حرباً طويلة والمانيا لا تستطيع ان تواجه حرباً طويلة الا اذا استوثقت من موارد اقتصادية وافرة تمدها في اراضي الاتحاد السوفياتي ولا تجد طائفة كبيرة منها في بلدان اوربا التي احتلتها فكان في هذا الادراك المزدوج مهد الاعتداء الالماني على روسيا

* * *

هذه الحرب حرب كلية تدمج في خططها الواسعة شؤون السياسة بحقائق الاقتصاد والصناعة بقوة الجيوش والاساطيل وأسلحة الجو ويشترك فيها المجند وغير المجند الرجل والمرأة على السواء . واذا كانت المانيا قد أحرزت حتى الآن ظفراً عظيماً في معارك متعددة وأخضعت معظم القارة الاوربية لسلطانها فان مصير الحرب الروسية لا يزال معلقاً في ميزان القدر وعلى الرغم من احتلال اراض روسية شاسعة لم يفز الجيش الالماني حتى الآن بتحقيق هدف واحد من أهدافه الرئيسية في روسيا ، كاحتلال حواضرها الكبيرة ، أو كسر جيشها وشل سلاحه او تدمير كيانها السياسي او استغلال مواردها المستفاة

﴿ الحرب البحرية والاقتصادية ﴾ — فاذا التفتنا من حرب البر الى حرب البحر وحرب الاقتصاد ، كانت لنا ناحية أخرى من الحرب ، كفة المانيا مرجوحة فيها على العموم . فقد خسرت جانباً كبيراً من اسطولها البحري (خسرت بارجتين هما الجراف فون شبي والبسمارك ، وعطبت البارجتان شارنورست وجنيسنو وخسرت طائفة من الطرادات والمدمرات في معركة النرويج وغيرها) . أما الغواصات فلا يعلم على وجه التحقيق عدد ما خسرته منها لأن الكتمان يحيط هذه الناحية من الحرب البحرية) ، واكتسحت سفنها التجارية من بحار الارض السبعة

ولا يسير ما يسير منها في مياه أوربا الساحلية الا وهو معرض للخطر . وقد كانت خسارة حليفتها ايطاليا في البحر أفدح ولا سيما في تارنتو (١١ نوفمبر ١٩٤٠) ومتابان (٢٧ مارس ١٩٤١) واكتسحت سفنها هي الأخرى من بحار الأرض السبعة، ولا تسير في البحر المتوسط — بحرنا على قول السنيور موسوليني — حتى ولا في الشقة الضيقة بين صقلية وشمال افريقية ، الا والطائرات والسفن الحربية البريطانية لها بالمرصاد . وقطع كل وارد تقريباً من وراء البحر عن المانيا وايطاليا والدول الخاضعة لهما

وخسارة بريطانيا البحرية لم تكن يسيرة . فقد خسرت من بوارجها « الرويال اوك » التي ضربتها غواصة المانية في قاعدة سكابافلو (نوفمبر ١٩٣٩) و« هود » (في ٢٤ مايو ١٩٤١) وطائفة من طراداتها ومدمراتها وغواصاتها . ولكن الأسطول البريطاني ما فتىء سيد البحار . وقد عوضت دور الصناعة البحرية البريطانية جانباً كبيراً مما خسره الأسطول وما تم صنعه من البوارج الجديدة يفوق ما خسرته عدداً وتريغاً وقوة (ثلاث بوارج هي جورج الخامس والبرنس اوف ويلز والدوق اوف يورك وقد تكون الرابعة والخامسة من هذه الطبقة على وشك الانضمام الى الاسطول) . وفي كل معركة بحرية اشتبكت فيها القوات البحرية البريطانية كان الفوز فيها للبريطانيين . وفي معركة متابان لم يخدش طلاء احدى السفن الحربية البريطانية التي اشتركت فيها !

غير ان آية القوة البحرية لا تتجلى في المعارك التي تستوقف الأنظار وحسب . ولكنها تتجلى كذلك في العمل العادي الذي تنهض به مئات من السفن الحربية الصغيرة ، مدمرات تحرس القوافل ، وكاسحات تكسح الالغام وباذرات تبذرها ، وفي ألوف من سفن تنقل الزاد والعتاد، وأخرى تحرك الجيوش. وهذا عمل دائم اضطلع به الأسطول البريطاني وأساطيل حلفاء بريطانيا الحربية والتجارية على أوفى وجه ، وما قوة الجيوش البريطانية في الشرق الأوسط ومنطقة سنغافورة الا دليلاً قائماً على صحة هذا القول

نعم بلغت خسارة بريطانيا وحلفائها بضعة ملايين من الاطنان في السفن التجارية ، ولكن خطر الغم المغنط أحبط ومعركة المحيط الاطلسي لم تسفر حتى الآن عن قطع « خط الحياة » بين اميركا وبريطانيا بل أجمع الخبراء في العهد الأخير على ان كفة بريطانيا فيها بدأت تميل الى الرجحان . واجتماع تشرشل بروزفلت في « مكان ما » بالمحيط الاطلسي في اغسطس الماضي برهان قاطع على من يسود البحار . وفي كل يوم يدخل الرافىء البريطانية ويخرج منها مئات من السفن الموسوقة

﴿ المدد الاميركي ﴾ هذه الحرب حرب كلية ، قاعدتها العريضة هي الموارد الاقتصادية والقدرة الصناعية . ولبريطانيا وحلفائها أن تعتمد على موارد الولايات المتحدة الاميركية

وقدرتها الصناعية ، اعتمادا على موارد جامعة الامم البريطانية وقدرتها الصناعية . والانتاج في جميع هذه البلدان — ولا سيما الولايات المتحدة الاميركية — لم يبلغ حده الاقصى بعد ، بينما الانتاج في المانيا والبلدان المحتلة التي تنتج لها بلغ حده الاقصى أو كاد

فستقبل هذه الحرب ، عندود بعوامل شتى ، جميعها تعمل فعلها ضد المانيا ، وفي مقدمة هذه العوامل ، اولاً — مد الانتاج الحربي الآخذ في الارتفاع في بريطانيا والولايات المتحدة ومن يواليهما . وثانياً — الاضطراب النفسي في صدور الشعوب الاوربية المقهورة ، وعدم استتامتها الى الذل والحرمان . وثالثاً — تفتح العيون والنفوس على أن النظام الذي يريد هتلر ان يقيمه في اوربا — بله في العالم — ينطوي على انكار جميع القيم الروحية في العمران التي هبط بها الوحي على الرسل الكرام وتغنى بها الشعراء وفصلها الفلاسفة . وهذا التفتح من شأنه ان يذكي البرم والقلق في نفوس الشعوب المغلوبة على أمرها وتعزيز عزم الدول التي ما فتئت حرة على مناصرة الدول والشعوب التي تناهض النازية و «نظامها الجديد»

﴿ كيف تنتهي الحرب ﴾ أما كيف تنتهي الحرب وما السبيل العملي الى ذلك وحتى ، فمن يدري ؟ ولكننا نستطيع ان نتصور ما يأتي : — ١ — استنزاف جانب كبير من قوة المانيا الحربية في بطاح روسيا اذا مضت روسيا في مقاومتها الباسلة العنيدة وكذلك فعل الحصر البحري وغارات القاذفات البريطانية على مصانع المانيا ومواصلاتها ٢ — نقمة الشعوب المغلوبة المحرومة — ومنها جانب من الشعب الالماني نفسه — حتى تصبح كالموجة الطاغية ٣ — ارتفاع مد الانتاج الحربي في بلدان جامعة الامم البريطانية والولايات المتحدة الاميركية ارتفاعاً يمكن القوات الديمقراطية المسلحة من التفوق تفوقاً حاسماً على القوات النازية المسلحة ٤ — فوز سلاح الطيران البريطاني بسيادة تامة فوق غرب اوربا تمهد لقوات الحلفاء البرية طريق غزوة اوربا مستعينة بالشعوب الناقمة المنتظرة وصول منقذيها

ومن الجائز — في رأي بعضهم — ألاّ تقوم ضرورة لغزو أوربا بالجيش ، على شرط انشاء سلاح جوي للحلفاء ، يستطيع امتلاك ناصية الجوّ في جميع النواحي في غرب أوربا وشرقها وجنوبها الشرقي . واذا كثرت فيه الطائرات التي تفتك بالدبابات — مثل الطائرة الاميركية « ايراكوبرا » — تغلبت على الدبابات الالمانية بغير منازلتها على سطح الأرض . وهناك فريق آخر يرى أنه لا بدّ من التفوق على الدبابات الالمانية بدبابات أكثر منها وأقوى وهؤلاء لا يرون مناصاً من غزو القارة الأوربية عندما تجتمع الوسائل الكافية لذلك والتفوق الميكانيكي في الناحيتين متاح للحلفاء بمعونة الولايات المتحدة

لقد كانت بريطانيا وحلفاؤها تحارب حتى الآن للمحافظة على كيانها وفي المرحلة التالية من الحرب ستحارب لكي تفوز بالنصر الحاسم